حديث الشهر

مع مؤلف قصة (قنديل أم هاشم)

يحيى حقي

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

ان كنت لم تره فهو كاتب دقيق ·· به من صفات « الشرارة » اشياء كثيرة ·· بوجه « احمر » وشعر في لون « الرماد » الصافي · ودقة ·· ولمعة ·

له صوت أعن قد يهدهد وقد يمزق · وابتسامة ثابتة كمركز اشعاع فيهـا التودد ، والسخرية ، والتواضع والكبرياء · واحيانا تكون خلوا من كل تعبير · وتبدو ابتسامة على أى حال ·

وفي عينيه اللتين سهرنا للقراءة نفس تعبير شفتيه ··· هما مرآة انطبعت على صفحتها لغة فمه ··· هما ايضا مركز اشعاع ··· فيهما سرعة التحول ·· تستطيع أن تعتبرهما « المؤشر » الذى يرشد الى تحرك الافكار في رأسه المستدير تحت شعره الرمادى الصافي ·

يتكلم عن الجيل الماضي وكأنه لا ينتسب اليه ··· ويصدر أقسى الاحكام وعـل فمه ابتسامة الدبلوماسي التقليدى حين يعلن (قطع العلاقات) وهو ينحنى ويسـلم ومن منديل في جيبه تفوح رائحة كولونيا ·

وكلمات الود عنك بالقنطار ··

وحين قابلته في مكتبه كنت أحس بوعكة من مرض لكن نشاطه انساني أنني لم أنم ليلة البارحة · أنساني · وأعداني ·

وتذكرت أول لقاء كان بيني وبين « يحيى حقي » · ذلك الذى كنا نتحـدث عنه وهو غائب عن مصر · وكان هذا اللقاء الأول في أمسية خصيصة ··· ربما كانت منذ عشر سنوات · حينما رأيت رجلا مهذبا يضايع عميد الأدب الدكتور طه حسين، في احدى قاعات (نادى القصة) وسألت الجالس الى جانبي وكان هو الكاتب « عبـد الحميد السحار » · فقال لي « انه ·· انه صاحب « قنديل أم هاشم » ·

وحملت أوراق بي الاضافة البادية على بذلته السوداء وقميصـه الابيض وبين الذين وضعهم جالسين الى « مقسات » البلح وفيها بقايا الشمع في أحريات الليل في ميدان أم هاشم · وتذكرت الطبيب والحبيب في هذه القصة · وسألت نفسي : ترى على اى كرسي جلس المؤلف ؟ ووراء اى شخصية فيهما قد تخفى ؟! ··

وعدت بافكاري اليه ثانية ونحن في مكتبه يدخن بنهم ويتحدث بصوت أجش ، ويتلفت كأنه في انتظار حدث .

عدت اليه وسألته :

ـ هل تذكر الارهاصات التي سبقت مولد قصتك « قنديل أم هاشم » ؟

ولم تبد عليه الراحة لهذا السؤال . عجبت . لقد الفيت منه على «طه حسين» و « العقاد » فأحسست جوا من الطمأنينة والذكريات الغضة . لكن احتجاجا ـ على طريقة « يحيى حقي » ـ ملأ نفسه حتى فاض على الأشياء ... على الحجرة (الملحقة) التي كنا نجلس فيها ذات الأرض العارية والمكاتب الكثيرة .

واحمر وجه « يحيى حقي » وقال بصوته الاجش المعاتب وبما يشعر انني سلبته حقه :

ـ لماذا « قنديل أم هاشم » ؟ أفندم ؟! .. كل الذين يتحدثون عني لا يذكرون الا « قنديل أم هاشم » .. أفندم ؟! .. ألست ترى أن لي مؤلفات غيرها يا « عبد الحليم » ؟! .. أفندم ؟! ..

ولم ارفع بصري اليه . جعلت ارسم على الاوراق أمامي أشكالا مبهمة . لو فحصها رسام (سيريالي) لرأى فيها صورة لمخلوق حائر . وتواردت على ذهني أسماء مؤلفات لـ « يحيى حقي » . فهل كان يسعده أكثر أن اذكر له قصة (صح النوم) ؟! مثلا ! ..

غير انني حسمت أطراف أفكاري وقلت له :

ـ انك تعرف قطعا ما قاله «مروه» عن الأشخاص .. انه قال : «ان صورة واحدة تطلق ابداعا لشخص واحد . فنحن لانكاد نذكر «تولستوي» الا بحزام من الحمل » .. وأنا أريد فأقول : اننا لانكاد نذكر «شوقي» الا بصورته المكتئبة المفكرة وقد أسند رأسه على كفه » . وانت .. وبين سيارتك وابهامك سيجارة تحترق . ثم .. اذا كان هذا يا سيدي صحيحا في نطاق المؤلف فهو صحيح في نطاق ما يكتبه . فنحن نذكرك بـ « قنديل أم هاشم » بصرف النظر عن موقفك .. لأن هذا .. هو موقفنا !!

عندئذ بدا الاقتناع المسالم على « يحيى حقي » وبدأ يجيب :

ـ بدأت الكتابة في سن مبكرة . ونشرت قصصا في الفجر والسياسية اليومية والاسبوعية . وغيرها . ثم حدث لي ان اتصلت بالحضارة الغربية اتصالا مباشرا . وكان ذلك في مدينة «روما» سنة ١٩٣٤ .. كنت هناك نائبا للقنصل . وكان هذا اول لقاء لي بالحضارة الغربية . مكثت هناك اربع سنوات ثم عدت الى مصر . عدت باحساسات كثيرة حاولت انا عبر عنها بقصة « قنديل أم هاشم » مع قصد في السرد والحبكة . فانا في حقيقةالامر لم يكن هدفي الاول في هذا العمل الا «البادئ» ولعل هذا هو الذي دعا الدكتور « رشاد رشدي » أن يقول : (انها ليست قصة) . ومع ذلك اسمح لي ان اقول : لقد لاحظت ان انماطا مختلفة من الناس قد اهتزت لهذا

العمل ... أنماطا اختلفت ثقافتهم عمن قرأوها . فقد قال لى بائع كتب شيخ : من صاحبنا هذا الذى كان يأكل البفتيك فى أوربا وأنوه يأكل الطعمية هنا ؟ .

وقال لى شاب يمنى كان يدرس فى مصر : لقد وصفت تقلتنا نحن من صنعاء الى القاهرة ثم العودة الى صنعاء ! .

وسكت « يحيى حقى » قليلا كأنه يتذكر شيئا ثم رمى بنفسة سيجارة وهو يردد لازمته المعروفة بصوته الأجش « اعتدم » .. ثم استطرد فى حماسة :

ومع ذلك فأنا أضيق ضيقا شديدا كلما قال لى انسان «قنديل أم هاشم» كأنى لم أكتب سواها - فهل هى بيضة الديك ؟!

وضحكنا . ولم يكن هناك جواب جديد أقوله لمؤلف « قنديل أم هاشم » لأن مسئولية الجماعات عن احساس واحد مشترك يرجع حتما الى أصول نفسية . ورأيت استكمالا للحديث الذى كرهه - الى حد ما - «يحيى حقى» أن أقول له :

- انك رمزت بزيت القنديل الذى سكبه الطبيب المثقف فى عين حبيبته الى شىء ربما يكون الروح .. ربما تكون العقيدة . كأنك ترى ان (العلم) ان سار وحده تاه . أو حتى اذا لم يتة ولم يضل فانه ربما كان وحشا . فالعلم فى الفرد له صمام أمان هو التواضع ، والعلم فى الجماعات له صمام امان هو الروحانية ، أو منفعة الانسان - فما رأيك ؟! ..

فأجاب « يحيى حقى » :

- انا أزعم أننى بـ « قنديل أم هاشم » قد مهدت للثورة . وتكفى صورة الطبيب الذى فتح عيادته فى الفجر الاحياء الوطنية . كان يصب «البوريك» من فنجال ليسيرا وتحميها من نقمات الملاح . ثم .. هل تستطيع أن تبين لى الفرق بين بوريك يصب من فنجال وبوريك يصب من علبة ؟ .

قلت : لا فرق . فالبوريك هو البوريك سواء أكان (قطرة) أم كان (قطيرة) ..

ثم انتقلت الى السؤال التالى :

- انت بين الناقد والفنان لك أعمال فى النقد وأعمال فى الخلق . فهل تحس احساس الناقد وأنت تؤلف واحساس المؤلف وأنت تنقد ؟ .

وكنت أنا متأهبا لأرى الصورة الجديدة .. متأهبا لأرى لأى النوعين سيخضع الكاتب الناقد وأى شخصيتيه أحب اليه ؟! أهى تلك التى تجمع الاشتات وتركبها أو تلك التى تعك التركيب وتشتته ؟

وقام «يحيى حقى» من على كرسيه وأخذ يذرع الحجرة العارية ذهابا وايابا وهو يتكلم وأنا مصغ الى ما يقول . لكنى أحسست انه يحب أحد « نصفيه » أكثر من الآخر .. أحسست انه يحب (المؤلف) فى نفسه أكثر من حبه (للناقد) فهل كان ذلك نتيجة لأنه أحب النصف الأنثى أو الأطول عمرا ؟! .. لا أدرى ! .. لا أدرى غير انه قال :

ـ انني احس احساس الناقد وانا اؤلف . بل لعل احدا لم يقس على في النقد كما اقسو انا على نفسي . اتفهم ؟! .. انني اعاني جهدا كبيرا في سبيل التجويد . ولعل ذلك يفسر لك قسوتي احيانا على من انقدهم .

قلت :

ـ نعم ـ لكن هل من الممكن أن تصف لي احساس الناقد وهو مستغرق في التاليف ؟ .

ـ ممكن .. ممكن ان اتكلم عن اصول عامة . فالابتكار الذي هو التاليف هزة روحية .. اضطراب .. قلق .

هذه هي الحالة التي تصاحبني عند التاليف . وفي هذه الحالة تعاودني الالفاظ معاودة شديدة . فاقاومها بصرامة ولا ارضى عن نفسي الا وانا واثق انه خلق ، وبمعنى آخر ، انا في حالة التاليف اشتغل (على الساخن) وان كانت يدي باردة كل البرودة. اما عند النقد فليس هناك هزة روحية بل محاولة الذهن للتيقظ والانتباه وجمع الاشتات وتصنيفها والعثور على الدلالة المختبئة في داخل العمل الفني . فانا اقل عند النقد اشتغل (على البارد) .

فاكملت مداعبا : وربما كانت يدك ساخنة في هذه الحالة .. وضحكنا .

كان «يحيى حقي» لا يزال يقطع الغرفة مجيئا وذهابا .. طيبا حقيقيا من اطياف النهار وردد كلمة (اهدم) في انتظار فكرة تخلصت او امهالا لي وانا اكتب . وكنت مستصحبا معي كتابا من تاليفه غير «قنديل أم هاشم» كان هو مجموعة قصص « دماء وطين » فيها قصة اعجبت بها منذ قراتها هي قصة « البوسطجي » حاول فيها الكاتب كما قال لي أن يبدل محاولة جديدة في معالجة الزمن وكنت ارى ان الفرق شاسع بين لغة السرد في هذه القصة ولغة الحوار الذي ينحل في الأعم الأغلب على هيئة اعتراف او حوار داخلي ـ وعندما فتحت القصة لاقرا له فيها اضرب مني . انكا على المكتب بمرفقه كأنني سأقص عليه ذكريات شبابه . وعيناه وراء المنظار توحيان بالترقب وحيرة السيجارة تهدد اصبعيه . وقرأت وصفه للبوسطجي :

« عباس عائد في الصباح المبكر من المحطة راكبا دراجته فوق الجسر . امامه حقيبته الصفراء مملوءة بالخطابات يثير دهشة ارواح الفلاحين الذين يمر عليهم لأنه لا يرد سلام من يحييه منهم . له ظل واضح الاطراف متعلق بارجل الحمار . وسطه ملتو على الجسر المائل وآخره يسحب على بعد ـ كالمراقب الحذر ـ فوق الغيط المجاور في الجو نسيم مشبع سرودة يستلذها الوجه . وفي السماء قطع من سحاب . عذارى رقيقة الحاشية ـ زاهية اللون . ممشطة مبرقة . تسير الهوينا ـ متداخلة متفارقة ـ للتنزه والتمطي في الشمس . فهي شفافة متبسمة . ليست سودا ولا دكنا كاخوتها الحاملات بالمطر » ..

ولفت نظره الى مايفعله المؤلف عن لا شعور في أول قصة ستكون في آخرها عذراء تحمل من شاب يتركها ويهرب . هي الأخرى زاهية متبسمة شفافة اللون

ممشطة مترفة ولو انها في الصعيد ٠٠ نعم ٠٠ وتبسم المؤلف لمؤلف ينقد كما يتبسم الناقد لناقد يؤلف وقلت له :

انني احس جمال هذه الصورة بتجربتين احداهما شخصية والاخرى فنية ٠ ولذلك اشتد اعجابي بها ٠٠ لكن ما اعظم الفرق بين هذا وبين قولك في نفس القصة: « من ساعة ماحطيت رجل في البلد ماطقتهاش ومثل كلمة عبال ما ارجع » ٠٠١ انني اعرف الحجج التقليدية لمثل هذه القضايا يا استاذ « يحيى » لكني كنت احس تفاوتا شديدا في مستوى « الطيران » وانت في سماء العمل الفني ٠ والدليل على ذلك الجملة الرائعة التي ختمت بها القصة ٠ حين دق ناقوس الكنيسة في القرية يعلن موت مجهولة ٠٠ هي البطلة ٠

« صوت جرس الكنيسة الصغيرة يدق اشعارا بموت ٠ يكاد ينطق ٠ فقديما النحاس في بعض الاحيان عن منتهى حزن الانسان وألمه » ٠

وتبادلنا النظرات في صمت فقد كان كل منا عند رايه ٠
ثم سألت بعد ذلك :

ـ قلت ذات مرة : ان اهتمامات الطبقة المتوسطة لم تعد ذات موضوع في الرواية ٠ فهل أنت مصر على هذا ؟!

فاجاب :

ـ نعم انا عند رايي ٠٠ والتحول الاجتماعي قلب الاوضاع قلبا تاما ٠ خذ القصص العديدة التي تحدثت عن الموظفين ومشاكلهم ٠ (والموظف عماد الطبقة الوسطى) وكذلك التحول في المفاهيم الاجتماعية بالنسبة للمراة والعمل ومعنى كلمة الشرف الى آخره ٠

قلت : هل أفهم من ذلك انك تلغي من كتاباتك وجود طائفة من الناس بواجداتهم ومشاكلهم ؟ هل يمكن هذا ؟! ٠٠٠ « دعوا كل الأزهار تتفتح » ! ٠

فقال : هناك أولوية ٠ فحين تكون المشاكل الرئيسية هي التطبيق الاشتراكي مثل الاجير الذي يصبح صاحب أرض والعامل حين يصبح عضوا في مجلس الادارة يجب أن نكتب عن هذا ٠

ـ الا تخاف أن تصبح مهارات كتابنا متقاربة اذا انحصرت في نطاق واحد فقط؟

ـ ان تقارب المهارات دليل على فقر الساحة الادبية وهذا لا حيلة لنا فيه ٠ ولكن المفروض أن يكون التعبير انعكاسا لمزاج الكاتب وثقافته ولابد من اختلاف المزاج والثقافة ٠ وقد انجلت كثير من المشاكل بعمل الثورة ، واذا دققت في الوسط الأدبي رايت كثيرا من كتاب الجيل الماضي يلعطون أنفاسهم ذهم يعلمون ٠

ـ ردني توضيحا ٠

ـ لأن الثورة الاشتراكية سحبت الارض التي يقفون عليها ، والشيء الذي

نادوا به قد تحقق بفعل الثورة ، فلا بد لهم من اهداف جديدة ، ولعلهم غير قادرين الآن على رؤية هذه الاهداف ، او لعل الملل والاعياء يصيبهم اذا فكروا . قلت :

ـ هل لابد اذن للكاتب (لكي يكتب) من مجتمع غير مستقر ؟ فماذا اذن عن عصور الاستقرار بعد الثورات في الدنيا كلها ؟! .

ان الثورات يا سيدي تقوم لتهيىء للمجتمعات فترات من الاستقرار ، تطول وتقصر حسب طبيعة الثورة التي سبقت فترة الاستقرار ومدى مواءمتها لحاجة الانسان فلو كانت القيم التي قررتها معاهدة الصلح بعد الحرب العالمية الاولى قيما حقيقية بالنسبة لمصالح الغالبية العظمى من البشر ـ ماقامت الحرب العالمية الثانية . وهكذا بالنسبة للثورات الاجتماعية ، فكلما كانت الثورة لصالح أكبر عدد من الناس ولرفاهيتهم كلما كانت أعمق جذورا في التاريخ ، وتبعا لذلك تطول فترة الاستقرار التي تليها . ويكون الادب والفن متحدثا عن قيم ثابتة يعتنقها المجتمع ومتغنيا بها . وليس ضروريا ان يتحدث الادب والفن دائما عن قيم (متحركة) كحركة (البندول) والا كانت علاقة الادب والفن بالفكر البشري مثل علاقة الضرب بالكرة . والفرق بين الاثنين كبير . اظنك معي يا استاذ يحيى في أن المجتمعات لا يمكن ان تعيش في حالة (مخاض) باستمرار أقصد في حالة (الام المخاض) فبعد ان تتمخض الثورات عن مواليدها يجب ان يتمتع نحن البشر باحساس الابوة والامومة لمواليد الثورات .. اعني قيمها . ونتمنى البقاء لهذه المواليد السعيدة ونهدهدة الأرجوحة لها . فقال « يحيى حقي » :

ـ الادب ليس متعة بل رسالة . وأحب ان يكون الادب وليد صراع . مثل ادب ابسن وتولستوى ودستويفسكي .

ـ لاتناقض بين المتعة والرسالة والصراع (ولادة) باستمرار يا استاذ حقي وليس هذه هي طبيعة الحياة . هناك دائما فترة بين (الولادتين) .

ـ نعم نعم . في هذا بعض الحق بدليل ماقاله بعض النقاد من اننا نعود الى الادب الرومانتي .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى سؤال جديد :

ـ حدثنا عن اسلوب القصة . وما القصة الجيدة في نظرك ؟

ـ القصة فرع من فروع الادب فاذا لم يشعر القارىء ان للمؤلف اسلوبا خاصا به بحيث يتجنب العبارات الشائعة والقوالب والكليشيهات ـ هبطت القصة عن المستوى الادبي . وأنا شخصيا احس احساسا شديدا أن التعبير الادبي يلوين جديد لمعنى قديم .

فقاطعته قائلا :

ـ هذا أجمل تعريف .

واستطرد :

ـ وهذا التلوين الجديد للمعنى القديم هو القدرة على رؤية تكشف اما جانب الفكاهة او العبرة في المشهد الذي يراد وصفه ٠

اما القصة الجديدة ٠ فماذا تريد ان أقول عنها ؟ قلت

ـ شيئا خارجا عن حدود قواعد النقد ٠ شيئا يقوله فنان ٠ فأجاب

ـ هي القصة التي تحملك بعد قراءتها تشعر بأنك اصبحت انسانا غير الذي كان ٠ فقلت مبتسما يكفيني هذا التعريف ٠

ثم ان هناك سؤالا مكررا في أحاديثي القيته على عميد الادب طه حسين والكاتب الكبير عباس العقاد ٠ ولست أرى فضولا في القائه عليك ٠ فهو شبيه (استفتاء) لأنه سؤال مهم

ـ لماذا لم تولد مدرسة أدبية كما يحدث في الخارج ؟!

ـ ليس هذا بصحيح ٠ فقد ولدت عندنا مدرسة أدبية في النقد عندما اصدر العقاد والمازني كتاب (الديوان) ويصدق هذا بدرجة اقل في الشعر عندما نشأت مدرسة (ابولو) وفي الادب مدرسة ادبية كان نجمها المتألق محمود طاهر لاشين ٠ لكن مع الاسف كان الجيل الذي بعدها داهلا بخبرها ٠٠ لم يعن بها ٠ فدار دورة كبيرة حتى اذا ما نضج ادرك انه كان يستطيع أن يبدأ من حيث انتهت هذه المدرسة ٠

قلت :

ـ ذلك يا سيدي لان ناخذ (دليلنا) من الخارج فلو كان الدليل من (عندنا) ما وقعنا في هذا العناء ٠

ـ هذا صحيح ٠ وبعد ذلك أن تاريخ ادبنا اصبح تاريخ (افراد) لا تاريخ (مدارس) ٠ ثم استطرد

وارجو ان تتجمع القوى التي تحاول أن تعبر عن مجتمعنا الجديد في مدرسة متميزة في كل شيء ٠ فنحن ننتظر تجديدا في الشكل والأسلوب والتعبير ٠ اني اعتقد أن فن القصة عندنا قد استنفد أغراضه ، ولذلك فان بعض الكتاب يحاولون الفرار الى فن آخر ٠ وهذا تعليل للاقبال على كتابة المسرحيات والرحلات ٠ وانا اعتقد ان انتاجهم المبدئي في المسرح لم يثبت بعد على أرض المسرح لان الموهبة المسرحية تختلف تماما عن الموهبة القصصية ٠

قلت ليحيى حقي وأنا اضحك في يأس لان الخمسة أوشكت أن تكون (صفرا) ٠

قلت :

ـ اذا كان هذا هو الحال بالنسبة للقصة وهي ارقى الانواع الادبية عندنا فماذا اذن عن الشعر ؟!

فأجاب :

ـ ان الشعر يعاني عندنا أزمة شديدة جدا فلم يستطع الشعراء حتى الآن

الخروج عن ذاتيتهم ، الوحدة والضياع نصيبهم ، ولا نجاة للشعر الا أن يرتبط من جديد بضمير الامة وأحلامها الباقية من عهود أمجادها السالفة ،

اني أصبح الشعر في رأس فنون الادب ، هو القادر قبل المسرح والقصة على تحريك اى أمة ، ولست انسى ما فعله اقبال في باكستان وعبد الحق حامد في تركيا وان كان مصطفى كمال (أتاتورك) قد طوى صفحة كل ما قاله هذا الشاعر العظيم،

هؤلاء قد تكلموا في كليات تعدى الروح ومن المكن وجدانها عند الترجمة ، وهي التي يشعر منها المسلم العربي انه معتز بنفسه وان جميع الصناعب يمكن التغلب عليها ،

وانتهت بالسؤال الاخير وأنا متطلع لاجابة جديدة ،

ـ احداث الثورة ومكاسبها ، ما رايك في القصص التي كتبت حولها ؟

ـ هناك قصص عن احداث الثورة ومكاسبهـا لا تزال باعتبارها ، لا تزال تترقبها ،

وأن تاتي من خارج الوسط الذي يعاني حوادثها ، نحن نطلب (الصدق) ،

وفي ذهني أمل أن يكون في هذه الجموع التي تعمل فعلا في السد العالي او الوادي الجديد من له موهبة قصصية ، انسان فنان سيسجل في أدبنا هذه الاعمال الجبارة ، أما أن ينتظر هذا التسجيل من كاتب مقيم بالقاهرة لا صلة له باسوان ولو زار السد أو اقام به فترة من الزمن فذلك أمل بعيد ،

قلت ليحيى حقي وأنا أبتسم له وأرنب ملامحه الهادئة والابتسامة التي تصلح مركز بشعاع لكثير من المعاني ،

ـ انت اذن معي في أن التجربة الشخصية هي الاب الشرعي للتجربة الفنية ،

فرد مبتسما وهو يقول « أهدم .. أهدم .. نعم أنا معك .. ومعي ومعك كل الكتاب ،

ثم تركت مكتب « يحيى حقي » .. وخرجت ،

كان في ذهني معان كثيرة وأنا أعود ادراجي ، منها أن الكاتب قـد يحب من اعماله الادبية أعمالا لا يحبها الناس ، ومنها أن الكاتب الناقد يجب أن يدعى كاتبا قبل أن يدعى ناقدا ، ومنها ان التجربة الخزفية خير من لا شيء .. حتى ولو كانت صغيرة ـ لكثير من الكتاب العالميين أخرجوا تجاربهم مرتين ، مرة كعمل صغير في قصة قصيرة ، ومرة أخرى كعمل روائي ...

وفي ذهني أشياء أخرى ...

ان الكتاب يجب أن يعيشوا هذا عند مفاخر الثورة ، عند الاعمال الكبرى التي ستعيد خلق تاريخنا ومجتمعنا ، بل وكل فرد فيه ، وأظن ان السد العالي أعل مفاخر التاريخ ، وسنقضي لهذه المواليد في مجتمعنا المستقر .. سنحس بطعم الابوة والامومة لمواليد ثورتنا ،

أعني لقيمها الثابتة ..